# أبو مندور

## بين زينب ودعاء الكروان والأرض

بقلم : يوسف الشاروني

بالرغم من ان قصة « أبو مندور » التي ظهرت أخيرا للاستاذ محمد زكي عبد القادر لا تعالج موضوعا جديدا بالنسبة لأدبنا العربي المعاصر ، الا اننا نحس بعد قراءتها انها اضافة الى هذا الادب وتعبير عن مدى تطوره المرتبط بتطورنا الاجتماعي .

انها قصة العلاقة التي تنشأ بين الرجل السيد وبين الريفية التي تعمل في خدمته ، والرجل هنا سيد مرتين بل ثلاث مرات - مرة لوضعه الطبقي ومرة بسبب انتمائه الى جنس الرجال ومرة ثالثة بسبب انتمائه الى مجتمع المدينة الذي يبدو في مرتبة السيادة بالنسبة لمجتمع القرية ، فهي علاقة لا يمكن ان تنشأ الا في ظل مجتمع يقبل بل وينمي هذه السيادات المختلفة ، ولا عجب فأحداث القصة تبدأ عام ١٩١٨ وتدور بين القاهرة وقرية من قرى مديرية الشرقية .

ولهذا فعلاقة رفعت بك ابن سعادة المفتش بالفلاحة صبحة في قصة ابو مندور التي نشرت عام ١٩٦٢ تذكرنا على الفور بعلاقة حامد بزينب في قصة محمد حسين هيكل التي نشرت لاول مرة عام ١٩١٤ ، وبعلاقة مهندس الري بآمنة في قصة دعاء الكروان لطه حسين التي نشرت عام ١٩٣٤ ، ولعل جانبا من الاختلاف بين هذه العلاقات الثلاث وطريقة التعبير عنها يرجع الى الاختلاف بين ظروفنا الاجتماعية التي انتجت هذه الاعمال الثلاثة في فترات متباعدة نسبيا

فمما تجدر الاشارة اليه ان التباعد في تاريخ الكتابة والنشر اكبر مما هو بين احداث القصص الثلاث . لان وقوع احداث قصة « ابو منذور » عام ١٩١٨ يجعلها في فترة قريبة من احداث عصفور من الشرق ودعاء الكروان .

— ٢ —

وقصة ابو منذور قسمان بقول مؤلفها .

ان القسم الاول رواه محمود ابو منذور ، وانه — اى مؤلفها — تولى رواية القسم الثانى . والواقع ان المؤلف هو الذى روى لنا القصة كلها ، كل ما هنالك اننا نستمع في القسم الاول الى روايته لما رواه له محمود ابو منذور، فنحن نستمع الى رواية داخل رواية ، ولا يتلقى القارىء رواية محمود ابو منذور له مباشرة . وقد تسبب ذلك في انقطاع السياق الروائى اكثر من مرة لنستمع الى تعليقات المؤلف . ويبدو ان المؤلف كان يريد ان يعطينا بذلك صورة لشخصية محمود ابو منذور ، وكان يمكنه ان يكتفى بما يرويه محمود ابو منذور مباشرة ، ليستخلص القارىء من ذلك صورة لشخصيته .

وقد بلغت طريقة السرد حدا من التعقيد في بعض الاحيان حين نستمع للمؤلف يروى عن محمود ابو منذور وهو يروى بدوره عن اخته صبحة ، ولو ان المؤلف روى لنا القسم الاول كما روى القسم الثانى لتخلص من هذا المأزق ، بالاضافة الى انه لم تكن هناك ضرورة فنية تلجئه الى مثل هذه الطريقة في رواية الجزء الاول ، فان هذه الطريقة نفسها قد اوقعته في مآزق فنية كان هو في غنى عنها ، وخير دليل على ذلك هو خلو القسم الثانى من هذه المآخذ . فنحن نستمع في القسم الاول الى محمود ابو منذور يروى احداثا لا يمكن ان تصل الى علمه ، انما هى في علم المؤلف باعتباره خالقا للعمل الفنى . مثال ذلك روايته ماحدث من مشادة بين رفعت بك وابيه المفتش عقب القبض على رجال العصابة ، وهى مشادة لم يشهدها ولم يترام نبأها الا للمؤلف نفسه باعتباره خالقا للعمل الفنى ، وكذلك تحليله للصراع النفسى الذى تعرض له رفعت بك عندما استعصت عليه صبحة . فضلا عن ان تحليل هذا الصراع — لو وصل الى علم محمود ابو منذور بطريقة خارقة — فانه فوق مستواه ، فهذا طمع المؤلف واضحا كل الوضوح وهو يتحدث من خلال محمود ابو منذور موظف الاوقاف الصغير الذى لم يتعلم الا في الكتاب وهو يتحدث عن علاقة رفعت بك باخته صبحة ، قائلا « كانت ترتفع اليه وتنخفض ، ويترل اليها ويرتفع ، لم تكن تستقر على حال . احيانا تسيطر عليه فكرة اغتصابها ولكنه يشمئز ، واحيانا يشعر انها اكثر من خادم فيابى ان يردها الى مرتبة الخادم .. الى آخر هذا التحليل الذى لايمكن ان يصدر الا عن المؤلف المحايد وليس عن الاخ الفلاح المتعاطف مع اخته او الثائر على تصرفات رفعت بك .

اما القسم الثانى فيتبع الطريقة الكلاسيكية في تتبع الاحداث مع جانب من شخصيات القصة حتى تصل بهم الى نقطة معينة ، ثم تعود القهقرى لتتلو ما وقع في هذه الاثناء للجانب الآخر من الشخصيات .

— ٣ —

لهذا لا نستطيع ان نقرر ان قصة ابو منذور من الناحية الشكلية تعبر عن مدى تطورنا الروائى المعاصر ، انما

الاضافة الحقيقية في هذه القصة هو انها تعالج العلاقة بين رفعت بك وصبحة على نحو فردي كما كان الشأن بين حامد وزينب أو بين مهندس الري وآمنة ، بل هي علاقة اشترك فيها المجتمع كله ، فالصراع بين السيد وخادمته صراع بين طبقتين ، قد ينضم فيه افراد احدى الطبقتين الى الاخرى اما لمصالحهم الفردية كما فعل بعض فلاحي القرية مثل متولي ناظر التفتيش حين انضموا الى رفعت بك ، واما لاتجاهاتهم الفكرية كما فعل الحسيني بك رئيس النيابة الثري الذي رفض ما تعرض له من ضغط حتى يتحيز في التحقيق لصالح رفعت بك وفضل ان يستقيل تشجعه على ذلك ثروته ليعمل محاميا ويدافع عن صبحة واخيها وانصارهما ، ولكن طبيعة الصراع تظل في جوهرها : مالك يريد أن يغتصب خادمته ، واقطاعي يريد أن يغتصب فلاحيه ، وليس صمود صبحة أمام وعد رفعت بك ووعيده حدثا فرديا بل لقد ارتبط ارتباطا وثيقا بانتقام الفلاحين من رفعت بك عندما تحداهم في قريتهم . لقد بدا أن هذا الهجوم هو ثورة من الفلاحين لعرضهم الذي حاول رفعت بك أن يغتصبه ، لكنه كان في واقع الامر فرصة للتعبير عن سخطهم على نظام يعانون منه ، ويحلو رفعت بك فوق قمته ، تماما كما بدا صمود صبحة أمام رفعت بك كأنما هو مجرد دفاع عذراء ريفية عن شرفها بينما هو في واقع الامر رمز لدفاع جماهير الفلاحين اللذين خرجت صبحة من صلبهم امام محاولات السادة لاغتصاب ما تبقى لهم من كرامة .

ليس غريبا اذن ان نجد النغمة الرومانسية تسيطر على روايتي زينب ودعاء الكروان ، بينما تنأى قصة أبو منصور عن هذه النغمة وتقترب من الادب الواقعي الى حد كبير ولنلاحظ كيف تناول كتابنا الريف في هذه الروايات الثلاث . ان كتابنا بمجرد اختيارهم موضوعات رواياتهم انما يعترفون بوجود مجتمع فيه سادة وخدم ، وهم بمجرد منح شخصياتهم السالبة موقف الصلابة امام اغراء سادتهم انما يعترفون بما يضطرم به نفوس هذه الفئة المضطهدة من ثورة . ولكن حسين هيكل في زينب وطه حسين في دعاء الكروان لا يسمحان لهذه الثورة بالتعبير عن نفسها في غير نطاقها الفردي .

فحسين هيكل يقرر في روايته أن العمال الزراعيين « تعودوا ذلك الرق الدائم ينحنون لسلطانه من غير شكوى ومن غير أن يدخل الى نفوسهم قلقا ، يعملون دائما ومن غير ملال ، ويرقبون بعيونهم نتائج عملهم زاهرة ناضرة ثم يقطف ثمرتها سيد مالك كم فكر في انه سيبيع قطنه بأعلى ثمن ويؤجر أرضه بأرفع قيمة ، وفي الوقت عينه يستقل الفلاح نظير قوته الحقير ، ولم يدر بخاطر السيد يوما ان يمد له يد معونة أو أن يرفعه من درك الرق الذي يعيش فيه . وكأنه ما علم أن هذا المجموع العامل يكون اكثر نفعا كلما زادت امامه اسباب المعيشة وتوفرت عنده دواعي الطمع في أن يحيا حياة انسانية » ( طبعة دار الهلال ـ القاهرة ـ يناير سنة ١٩٥٣ ـ ص ٢ ، ٢١ )

وهكذا نجد أن حسين هيكل بالرغم من اعترافه باستغلال الفلاح الا انه يزعم انه لا يشكو هذا الاستغلال ، ويعيب على السيد انه لا يمد يد المعونة لهذا الرقيق حتى يكون اكثر نفعا له ، فكأن

كل ما يطالب به حسين هيكل هو وجود أسياد أكثر ذكاء .

أما طه حسين فقد وصف حياة آمنة في القرية على لسانها بأنها « كلها شظف وخشونة ، وكلها جهل وغفلة ، وكلها رجوع الى ذلك الطور الأبله الذي جعلت أخرج منه قليلا قليلا » ( دار المعارف — القاهرة — الطبعة الاولى — سنة ١٩٤١ — ص ٦٨ ) ، وهكذا يعبر لنا طه حسين عن وعي بطلته — كما يقول الاستاذ بدر الدين الديب — بهذه الالفاظ المجردة العامة التي تجنب الكاتب بها الدخول في تجارب وتفاصيل مستمدة من حياة بطلته ( دعاء الكروان — او طه حسين روائي — مجلة الاديب — بيروت — يونية سنة ١٩٥٢ — ص ٢٤ ) بل انه ما يلبث ان يصور أهل الريف كما سبق أن صورهم حسين هيكل ، فأم آمنة تهيب بابنتها قائلة « انظري الى هؤلاء الرجال والنساء والى هؤلاء الفتيان والفتيات . قد ملأهم النشاط وبعث فيهم الجد حياة لا حد لها . فهم يذهبون ويجيئون وهم يعملون لا يعرفون كللا ولا سأما وأصواتهم ترتفع لا بالشكوى ولا بالأنين وانما ترتفع بهذا الغناء الساذج الحلو الذي يبعث في الجو نغمات ساذجة حلوة ، والذي يصور الأمل في غير اسراف ، والرضى في غير استكانة ، والاطمئنان في غير حزن ، وحب العمل على كل حال والثقة بالله على كل حال . ( دعاء الكروان — دار المعارف — ط ١ سنة ١٩٤١ — ص ٧٦ ، ٧٧ ) .

أما محمد زكي عبد القادر فانه لا يعبر هذه النظرة الزيفة الى أهل الريف ، ولا يعبر عنه في كلمات مجردة عامة ، ان الريف في وعي بطلته وكما جاء على لسانها : « بالليل أنام على الشوك ، حاقعد طول عمري في التعتيش أروح وآجي ، استحمل زرالة سي الناظر والحولية ، اشتغلي يا بنت انت وهي .. اللورة دي ساياها ليه يابنت .. وسلسلة من الشتائم لا تنتهي ، وآخر النهار أروح مهدودة الحيل انت يا محمود لابس جلابية مقطعة وابويا مش قادر يشيل دراعه من الفاس طول النهار ، وأمي مشدودة عمالة تشتم وتلعن . ( ابو مندور — الدار القومية — القاهرة — ص ٥٥ ) . هنا نحن أمام تفاصيل ووقائع وخبرة . واهل الريف ليسوا — كما صورهم هيكل وطه حسين — راضين قانعين بأوضاعهم ، فان صبحه ما تلبث ان تستطرد قائلة « كنت بتشوفني هادية يا محمود ، ساكتة كأني مش باحس ولا باعرف — انا كنت باغلي من جوه لكن أعمل ايه » ( المرجع السابق ص ٥٥ ) .

ويبلغ التعبير عن مدى تأخر ريفنا في مقابل مجتمع المدينة ، ليس من خلال حوار شخصيات القصة ، بل من خلال تطور الاحداث نفسها ، عندما يخطب رفعت بك ابنة أحد الباشوات ، وتجد صبحة أن آمالها تحطمت فيفلح الحاج أخوها بالعودة الى القرية ، وعندما طلعا البندر طلب منها أخوها أن تغير ملابسها « ولفوتك كمان يا صبحة ، ارجعي زي ما كنت .. انسي اللي شفتيه » . ( المرجع السابق ص ٩٤ ) .

— ٤ —

ان الريف الذي نتعرف عليه في قصة ابو مندور قريب الشبه بالريف الذي

تتعرف عليه فى قصة الارض لعبد الرحمن الشرقاوى ، فهذا موقف الفلاحين فى كلا القصتين من اصحاب السلطان فى المدينة — مع اختلاف الاسباب — كان ايضا متشابها . وكما اختلف الريف فى قصة ابو سيدور عن الريف فى قصتى زينب ودعاء الكروان ، كذلك اختلف عنهما الريف فى قصة الارض .. يقول عبد الرحمن الشرقاوى مقارنا « وتمنيت لو أن قريتى كانت هى الاخرى بلا متاعب . كالقرية التى عاشت فيها زينب ... الفلاحون فيها لا يتشاجرون على الماء، والحكومة لا تحرمهم من الرى ولاتحاول ان تنتزع منهم الارض او ترسل اليهم رجالا بملابس صفراء يضربونهم بالكرابيج والاطفال فيها لا ياكلون الطين ولا يحط الذباب على عيونهم الحلوة . وتمنيت لو ان قريتى كانت هى الاخرى كقرية «زينب» لا ينزل فيها من الرجال والنساء بعد البول دم وصديد ولا يدهم اهلها المرض الفاجىء فى حقولهم ، فيتلوى الانسان منهم لحظة ويطلق صرخات يائسة فاجعة من حدة الالم .. ثم يسكت .. يسكت الى الابد . ( الارض — دار روز اليوسف — يونية سنة ١٩٥٤ — جزء ٢ — ص١٤٣ ) لكن صاحب الارض مالبث ان يستطرد فى مقارنته قائلا « ولم تعرف قرية زينب زهو النصر وهى تتحدى القضاء والانجليز والعمدة والحكومة وتنتصر لبعض الوقت . ( المرجع السابق ص ١٤٤ ) .

ولئن انحصر التعبير فى قصة ابو سيدور عن الصراع بين الفلاحين من جانب ورفعت بك ومن يناصرونه من رجال الحكم من جانب آخر فى تلك المعركة التى دارت بين الجانبين وكرت فيها دراع رفعت بك ثم ما تلا ذلك من اجراءات التحقيق والمحاكمة ، فقد اتاحت طبيعة الصراع فى رواية الارض ان تتعدد جوانب التعبير عنه ، فلم ينحصر فى مجرد الصراع المباشر بين الفلاحين ومن يريدون ان يغتصبوا منهم مياههم واراضيهم ، بل ساندت هذا الصراع ظواهر اخرى اهمها ظاهرتان اولهما ثورة فكرية من جانب بعض الفلاحين على العقائد التى تدعم سيطرة مغتصبيهم ، وثانيهما محاولة الكاتب التغلغل فى نفسية الشخصيات التى يستخدمها السادة لارهاب هؤلاء الفلاحين لتكشف معه فى النهاية انهم ينتمون الى نفس طبقة الفلاحين وليسوا الا مجرد ادوات يستغلها السادة تماما كما يستغلون الفلاحين ؛ وهكذا لتكشف تلك العداوة الظاهرية عن شعور مشترك بالمأساة والرغبة فى الثورة .

أما الثورة الفكرية فيمثلها عبد الهادى ، فهو لا يؤمن بما يردده الشيخ الشناوى من ان اغتصاب الحكومة مياه الفلاحين وارضهم لصالح الباشا لعنة حلت على القرية لانها لا تصلى وتعصى اوامر الله ، وان ارض الباشا تنعم بالمياه خمسة ايام كل اسبوع لانه يؤتى الزكاة والقرية تمنعها . بل يرى عبد الهادى ان اهل قريته لا يملكون ما يدفعونه للزكاة ، وان فى تلك القرى البعيدة التى سمع عنها لا يدفع صاحب الارض زكاة ولا يؤدى صلاة ، ومع ذلك فالماء يجرى فى ارضه والحبوب تتكدس فى مخازنه وغضب الله لا يعرف طريقا اليه ...

وهذا الرجل يسرق من الانفار ويشرب الخمر في نهار رمضان ويغتصب الفتاة التي تعجبه ويظل بعد كل هذا بعيدا عن غضب الله ... ولا تحجز الحكومة على ارضه وتغدق عليه الماء . ( الارض — جـ ١ — ص ٨٨ ) . بل ان القرية كلها لا تصدق هذا التعليل أو التبرير ( الارض — جـ ١ — ص ٩٤ ) .

اما الكشف عن نفسية بعض الشخصيات التي كان يستخدمها السادة في اضطهاد الجماهير وارهابها لتكشف لنا عن وجه آخر مختلف عن ذلك كل الاختلاف مواضيع مثلا عندما امثل موظفو المساحة الثلاثة على عمدة القرية فلم يعجبه تصرفهم ، فسلط عليهم الشيخ شعبان مدعي الدروشة حتى ضايقهم فصاح احدهم فيه « عود كده حانقطع السدلة اللي جايبها بالتيلة .. نعمى شايفنا مسوطين قوى من الشغلة دي .. حاى تقرفنا كمان ( الارض — جـ ٢ — ص ٦٥ ) . اما قصة الشاويش عبد الله رئيس الهجانة الذي جاء مع زملائه ليؤدبوا اهل القرية على جرائمهم فهي اكثر وضوحا ، فبعد ان اظهر المؤلف الجانب الرسمي للشاويش عبدالله وهو جانب لايعرف الرحمة ولا التفاهم ، يعود فيذكر لنا انه جلس « يفكر في امه وهو يحدث نفسه في ندم انه ضرب في هذه القرية رجالا كأبيه ، ونساء كامه ، وضرب أيضا اطفالا صغارا كأخوته .. وكالاطفال الذين انجبهم في قريته » ( الارض — جـ ٢ — ص ١٤١ ) . ثم يكشف لنا عن طبيعته الانسانية شيئا فشيئا حتى انه جلس مع أهل القرية — الذين سبق أن أدبهم بكرباجه — ليحدثهم عن أسرته التي تشقى في أسوان ويغني في نغم حزين :

اشمعنى جماعتي ايمنى
وجمعانا جالوس طي
واشمعنى الخير جداهم
واحنـــا شحاتين

ثم تتطور شخصيته حتى يعتدي على مأمور المركز دفاعا عن أهل القرية مما عده بعض النقاد مبالغة وعيبا في القصة .

هنا انما نجد في قصة ابومندور شخصيات من طبقة السادة أو ممن يستخدمونهم كادوات الاضطهاد ، تعطف على الفلاحين ، او تقف الى جانبهم مثل ضابط النقطة بهجت حلمى ومثل وكيل النيابة ورئيس النيابة وعايدة هانم اخت رفعت بك ووالدتها المفتش نفسه ، لكنهم يتخذون هذا الموقف منذ بدء القصة لايعانون صراعا ما ، ولايناقش المؤلف موقفهم من داخلهم بحيث تبدو مواقف العطف والتأييد غير مفهومة او مبررة في كثير من الاحيان ، وبحيث تبدو معظم هذه الشخصيات مسطحة لا عمق لها .

لهذا كله بدت طبيعة الصراع في قرية «الارض» اعمق واشمل من طبيعة الصراع في قرية « أبو مندور » ، ولعل هذا الخلاف كان له اثره في نهاية كل من الروايتين . فمؤلف قصة «أبومندور» كان اميل الى الانتهاء بالمصالحة بين الطرفين كأنما صراعهما كان مجرد رومانسية « مش جاسالك يا صبحتاندا ... أنت غلطتلى كتير ( أبو مندور — ص ١٧٢ ) ... وعندما ماتت سمحة مشى رفعت بك في جنازتها . وهكذا جمعت نهاية قصة « ابو مندور » بين نهايتي زينب ودعاء الكروان ، فالاقتراب الذي

حدث في النهاية بين رفعت بك وصبحة اشبه بتلك المصالحة التي حدثت في النهاية وبصورة اوضح بين آمنة ومهندس الري وهي المصالحة التي انتهت بتهيئهما للزواج ، وكما ماتت زينب شهيدة لانها تزوجت رغم انفها فقد ماتت صبحة « قديسة جفت على عودها .. عذراء لم يمسها شر ».

اما قصة الارض فانها لتنتهي والصراع ما يزال مستمرا لانه كان ـ كما قلنا ـ أعمق واشمل وبحث اعمق في تعدد جوانب التعبير عنه .

ان تطور حياتنا الاجتماعية اليوم قد اوحى بلاشك بتطور الاحداث في قصة ابو مندور ، وكانما الاستاذ محمد زكي عبد القادر يريد ان يقول ان تطورنا الاجتماعي الحاضر ، كانت له مقدماته التي مهدت له بحيث جاء منطقيا مع هذه المقدمات ، فقد كان ريفنا منذ اكثر من اربعين عاما يضطرم بروح التململ والثورة متلمسا طريقه نحو عدالة اجتماعية يعتقدها، وهذا ماسبق ان اعلنه عبدالرحمن الشرقاوي في روايته الارض قبل ذلك بعشر سنوات . لهذا فلئن كانت رواية الارض تحمل روح الاهابة والتنبيه فان قصة «ابو مندور» تحمل روح التفسير والتعليل .